نقد الرومانسية - قراءة فكرية -

A critique of romanticism - an intellectual reading-

عبد القادر سرير عبد الله[1]
[1]حامعة علي لونيسي- العفرون، abdek.serier@gmail.com
الاستلام: 23-07 -2022 القبول: 01-10-2022

ملخص:

الرومنسية مذهب أدبي وُلد في المجتمع الغربي، ثم انتشر في آداب الشعوب والأمم الأخرى، ومن بينها أدبنا العربي، حيث احتضنه أدباؤنا وراحوا يبدعون على منواله شكلا ومضمونا، دون مساءلة أو نقد لهذا الجسم الغريب الذي اقتحم علينا أدبنا دون إذن منّا.

نسعى في بحثنا هذا إلى تشريح " الرومنسية " وقراءتها قراءة فكرية وموضوعية، من أجل الوقوف على الجوانب والأبعاد السلبية فيها والتي نرى أنّها تخالف مكونات هويتنا الثقافية ومرتكزاتنا الحضارية وتتصادم مع منظومة القيم والأخلاق لدينا، ولا تتوافق مع أذواقنا الفنية والجمالية ولا تراعي تقاليدنا الأدبية.

كلمات مفتاحية: الرومنسية;الأدبالغربي;الأدبالعربي;الشعر;وظيفةالأدب.

Abstract

Romanticism is a literary doctrine that was born in Western society, and then spread in the etiquette of other peoples and nations, including our Arabic literature, where our writers embraced it and began to innovate on its own in form and content, without accountability or criticism of this strange body that invaded our literature without our permission.

In this research, we seek to dissect “romance” and read it intellectually and objectively, in order to identify the negative aspects and dimensions in

it, which we believe contradict the components of our cultural identity and our civilizational foundations and clash with our system of values and morals, and do not correspond to our tastes. Artistic and aesthetic and does not take into account our literary traditions.

Keywords: romanticism; western literature; Arabic literature; poetry; the function of literature

المؤلف المراسل: عبد القادر سرير عبد الله، **الإيميل:** abdek.serier@gmail.com

1مقدمة:

تعددت المدارس الأدبية الغربية وتنوعت باختلاف أصولها الفلسفية ومرجعياتها الفكرية، وبتغيّر السياقات المختلفة التي نشأت فيها، ولقد استورد أدبنا العربي المعاصر تلك المدارس الغربية بكونها حقائقَ علمية ومسلّمات بَدهية، وتجارب إنسانية كونية منزهة عن الخطأ، لا بكونها اجتهادات بشرية، وفرضيات نظرية، ورؤى ذاتية غربية محليّة، يجب على الأديب العربي أن يضعها تحت مجهر التثبت والتدقيق والمراجعة والمساءلة، بحيث يقبل منها ما يراه موافقا لمكونات وعناصر ثقافتنا العربية الإسلامية، ومتماشيا مع أذواقنا الفنية وأعرافنا الأدبية، ويرفض ويلفظ ما يراه عكس ذلك.

لقد كان الفراغ التنظيري الأدبي الرهيب الذي عاشه ومازالت يعيشه المشهد الأدبي العربي الراهن - منذ عصر النهضة إلى اليوم - سببا مباشرا في حدوث حالة هذا الانبهار الحضاري، والعبودية الفكرية، والكسل العقلي الذى أصابنا ونحن نواجه ذلك التيار الجارف من النظريات والمدارس والأدبية الغربية، دون أن نتمكن من التمييز بين الإيجابي والسلبي فيها، وبين الخاص والمحلّي الذي يمِيز بيئة عن أخرى، والعام الذي تشترك فيه كل ثقافات وحضارات أمم الأرض كلِّها.

نتطرق في بحثنا هذا إلى الخوض في مجال معقد ومركب ومتعدد الأبعاد، ألا وهو نقد تلك المدارس الأدبية الغربية، ونحن نتخذ سبيل الوسطية، حيث لا نرفضها جملة بسبب مصدرها، ولا نقبلها جملة بسبب تخلفنا الأدبي وعقمنا الإبداعي، وإنّما ندرسها ونحللها، وندقق في أصولها الفلسفية وخلفياتها الفكرية، ونبحث في السياقات المحلية التي وُلدت فيها، ثمّ نصدر أحكامنا إزاءها، بالسلب أو بالإيجاب.

اخترنا المدرسة **الرومانسية** نموذجا للدراسة والتحليل وِفق الرؤية النقدية الوسطية التي طرحناها من قبل للتعامل مع النظريات والأفكار والتصورات الأدبية المستوردة من الغرب ؛ وعليه نسعى في مقالنا هذا إلى الإجابة عن الأسئلة الآتية:

ما السّياقات المختلفة التي وُلدت فيها المدرسة الرومانسية؟ وما أصولها الفلسفية ومرجعياتها الفكرية؟ وما مبادئها ؟ وما الموقف الوسطي للأديب العربي إزاء هذه المدرسة ؟.

أولا- النّشأة والسّياقات:

نشأت المدرسة الرومنسية في فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر، وإنْ كانت بذورها زُرعت قُبيل ذلك في ألمانيا وانكلترا، وحدث ذلك في سياقات اجتماعية وتاريخية وسياسية محددة ومعروفة سادت في المجتمع الفرنسي بُعيد الثورة الفرنسية، حيث أصيب المواطنون عامة والأدباء خاصة بيأس قاتل و بيبة أمل شديدة، بسبب عدم تحقيق أهداف الثورة المأمولة، والفشل في تجسيد شعاراتها على أرض الواقع، خاصة تلك المتمثلة في الحرية والأخوة والعدالة ؛ فقد سادت في فرنسا أثناء الفترة التي تلت الثورة موجة من الفوضى والرعب والاقتتال بين أنصار الثورة من وِجهة، وبقايا أنصار الملكية من وِجهة أخرى، ممّا أدّى إلى عودة النظام الملكي في الفترة الممتدّة من 1815 إلى 1848، التي تميّزت بصعود وهيمنة البورجوازية في المجتمع، وتراجع الحرية الفردية والجماعية، وانتشار البطالة والفقر والجوع ومظاهر البؤس الشامل في فرنسا، إضافة إلى انهزام الجيوش الفرنسية في معاركها مع

جيرانها، خاصة في معركة **واترلو Waterloo** الشهيرة " وهي قرية تقع بالقرب من مدينة بروكسل عاصمة بلجيكا. حيث دارت رحى المعركة التاريخية الشهيرة والتي انهزم فيها نابليون في 18 يونيو 1815 " (السبكي، 1985، صفحة 146)[1]، ونُفي الأمبرطور المخلوع إلى جزيرة " **سانتا هيلينا " وهي** جزيرة تابعة لبريطانيا، تقع على بعد 4000 كلم شرق ريو دي جنيرو البرازلية ، و" بقيَ فيها حتى قضى نحبه في سجنه في 5 ماي 1821 "[2].(السبكي، 1985، صفحة 147)

لقد تركت تلك الأحداث المأساوية التي وقعت في السنين التي تلت الثورة الفرنسية آثارا سلبية عميقة في نفوس الثوريين، خاصة الشباب منهم، والذين كانوا يحلمون بعهد مشرق جديد بعد انتصار الثورة عام 1789م على المَلَكية والإقطاع والكنيسة، لكن ذلك لم يحدث -كما ذكرناه آنفا - حيث انتشر اليأس بين النّاس، وسكنتهم خيبة الأمل، وسيطرت على نفوسهم الكآبة، وعمّ الحزَن والبؤس والقنوط بين الأدباء خاصة ؛ فكانت هذه المظاهر السلبية مجتمعة سببا في انطواء الأدباء وانزوائهم وابتعادهم عن ذلك الواقع المرّ، فـ" نتائج الثورة السلبية هي التي ملأت قلوبهم حزنا وأشعرتهم بالخيبة والأسى والضياع "(نصر، 2008، صفحة 15)[3] وأدركوا وأيقنوا، بل اقتنعوا أنّه لم يعد شيء في الحياة يستحق الذكر والوصف والمدح، فكل شيء صار في منظورهم بلا معنى وبلا هدف، فانقطعوا عن الواقع، وصاروا يهتمون بمشاعرهم وأحاسيسهم الذاتية، وحالاتهم النفسية والعاطفية الداخلية فقط، إلى جانب حبهم وتمجيدهم للطبيعة وهروبهم إليها، فهاموا في غاباتها وجبالها ووهادها، ونسوا أو تناسوا الحياة اليومية للشعب بكلّ ما تحمل من قضايا وهموم وأحداث.

1- آمال السبكي، أوروبا في القرن التاسع عشر(فرنسا في مئة عام) ، دار المعرفة للنشر و التوزيع ، جدّة، المملكة العربية السعودية، 1985، ط1 ، ص146.

2- آمال السبكي، أوروبا في القرن التاسع عشر(فرنسا في مئة عام)، مرجع سابق ، ص 147.

3 – قريرة زرقون نصر، الاتجاه الرومنسي في الشعر العربي الحديث بالمغرب، دار الطليعة الجديدة، دمشق ، سوريا، ط1، 2008، ص15.

في تلك الظروف والسياقات الفرنسية الخاصة والمحلية نشأت الرومانسية وترعرعت، واشتدّ سوقها، ثمّ انتقلت وهاجرت من فرمسا إلى الأقطار الأوروبية الأخرى، ثم وصلت إلى مختلف الآداب العالمية، ومنها الوطن العربي، ورغم اختلاف السياقات والظروف والحيثيات التي كانت سائدة في مختلف الأقطار العربية آنذاك عن الواقع الفرنسي الذي نشأت فيه تلك المدرسة - كما ورد من قبل - فقد أقبل عليها الأدباء العرب دون علم أو دون وعي بتلك الظروف والعوامل والسياقات المتعددة التي وُلِدت فيها تلك المدرسة، وراحوا ينظمون أشعارهم ويكتبون سرودهم على منوالها ، دون تمحيص ولا نقد ومراجعة لمرجعياتها الفكرية، ولا سياقتها التاريخية والاجتماعية، وكأنها - أي الرومنسية -كانت قدرا محتوما على أدبنا العربي، وكأنها فتح إبداعي جديد علينا احتضانه واتباعه دون نقد أو تساؤل، بل علينا الذوبان في أتونه، ونسيان وإنكار كل مقومات وخصائص وأسباب هُويتنا وحضارتنا، ومرجعياتنا المعرفية والفكرية، وخصوصياتنا الفنية والإبداعية.

ثانيا - أهم مرتكزات الرومنسية :

ينفي بعضُ منظري الأدب الغربي أنفسِهم أنْ تكون الرومنسية مذهبا نقديا قائما بذاته، لأنّ روادُها لم يضعوا لها مبادئَ وقواعدَ محددة، وإنّما قدموا تصورات وأفكارا مختلفة ومتفرقة، لهذا فإنّه " من الصعب تعريف الرومانسية الفرنسية لما تتميّز به من تنوع وثراء، فهي توصف عادة أنّها رد فعل ضدّ الكلاسيكية "(فريد، 1977، صفحة 4)[4]، ولكن رغم غموض المبادئ التي قامت عليها المدرسة الرومنسية، ووجود أنماط وأشكال مختلفة لها، فقد استطاع بعض النقاد الغربيين تحديد أهمّ مرتكزات هذه المدرسة الأدبية، بعد استقراء المدونة الرومنسية الأوروبية عموما، ويمكننا تلخيصها فيما يأتي :

4-آمال فريد ، الرومانسية في الأدب الفرنسي، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 1977،ص4.

1 ـ تمجيد المشاعر والأحاسيس الذاتية، والتغني بالألم والحزن واليأس، وتتّسم بـ " العاطفة القوية والانفعال والهياج والحساسية المفرطة، بحيث تستحيل إلى حالة نفسية من الكآبة والشعور بالأسى والحزن، وتدخل فيها لفظة السوداوية **Melancolie**...و كانت مرض العصر "[5] .(الطاهر، 1983، صفحة 20)

2 ـ تحرير الأدب من قيود الأدب الكلاسيكي، مثل هيمنة العقل، وسلطة القوانين، والتقاليد الأدبية الموروثة عن الأدب اليوناني .

3 ـ تجريد الأدب من الوظيفة الاجتماعية والأخلاقية والتاريخية.

4 ـ الدعوة إلى أدب " **هروبي** " ؛ يعني الهروب من الواقع المعيش البائس، وراح الرومانسيون يبحثون عن السعادة في الطبيعة، والأحلام، وفي الحنين إلى الماضي، وفي العالم غير العقلاني ،مثل عالم الأحلام وحالات الجنون .

5 ـ الدعوة إلى " **أدب الفرد**، الذي يمجد مشاعر الذات ويقدسها، ورفضوا " أدب الإنسان النمط، لأنّه إنساني النزعة، يُعْنى بتصوير المشاعر والأحاسيس التي يشترك فيها البشر جميعا "[6].(قصاب، 2005م، صفحة 42)

6 ـ الخيال وحده مصدر الإبداع الأدبي .

ثالثا ـ نقد الرومنسية :

إنّ المذاهب الأدبية الغربية كلّها ما هي إلاّ انعكاس لتصورات فلسفية، وصدى لخلفيات فكرية، ونتاج ظروف محلية وسياقات خاصة لبيئة غير بيئتنا العربية الإسلامية ـ كما ورد آنفا ـ وإفرازات لحيثيات حضارة غير حضارتنا، وتعبير عن ثقافة أخرى غير ثقافتنا، وهي بذلك ليست رؤى وتوجهات أدبية فنية وجمالية محايدة وبريئة، وُضعت لتطوير النص الأدبي فحسب، وإنّما هي مدارسُ حمّالة لمضامين فكرية ورسائل إيديولوجية تعبّر عن رؤية الأديب للإنسان والحياة والكون، بل وللّدين

[5]ـ علي جواد الطاهر، الخلاصة في مذاهب الأدب الغربي، دار الجاحظ للنشر، بغداد ، العراق،1983، ص20

[6] ـ وليد إبراهيم قصاب ، المذاهب الأدبية الغربية رؤية فكرية و فنية ، مرجع سابق ، ص 42.

ذاته، حيث يخالف الكثير منها أصول حضارتنا العربية الإسلامية، ويعارض المكونات الرئيسة لهويتنا، ويتصادم بشدّة مع منظومة القيم لدينا، كما لا تتوافق مع تقاليدنا الإبداعية وأعرافنا الأدبية وأذواقنا الفنية.

الرومنسية تُعدّ أحد أشهر تلك المذاهب الأدبية التي لقيَت قَبولا حسنا وواسعا لدى الأدباء العرب في القرن العشرين، وتمكنت من الهيمنة على مساحات واسعة من الإنتاج الأدبي الذي جادت به قرائح المبدعين العرب، خاصة الشعراء منهم، والذين جسَّدوا مبادئ الرومنسية المتمثلة في"معاني اليأس، والقلق، والغربة ،و التشاؤم، والإحساس بالضياع في شكل مرضي يبدو معه صاحبه وكأنّه يجد لذة في الشكوى، ومُتنفسا في البكاء، ويرى في الألم مطهرة للنفس "[7]،(قصاب، 2005م، صفحة 45) حيث صدرت قصائدهم عن ذات مبهورة بثقافة الآخر الغربي الغالب والمسيطر سيطرة كاملة على ووجدانياتهم وعقولهم، إلى درجة أنّهم لم يفكروا فى قراءة الرومنسية قراءة علمية موضوعية، بَلَهْ أنْ يعارضوها أو يردّوها على أصحابها، وقد مثّل هذا المذهب أقوى تمثيل أصحاب الديوان، وجماعة أبولو، وشعراء المهجر في النصف الأول من القرن العشرين.

تدل عناوين الدواوين الشعرية التي نظمها أغلب الشعراء الرومنسيين العرب بكل وضوح على مدى تأثرهم بالأفكار المنحرفة، والتصورات السقيمة والعواطف المريضة التي تدعو إليها الرومنسية " **فإبراهيم ناجي** هائم " من وراء الغمام " و**حسن كامل** الصيرفي يُنشد " الأحلام الضائعة " و**مصطفى عبد اللّطيف السحرتي** يستنشق " أزهار الذكرى" و**مختار الوكيل** يسبح في" الزورق الهائم "، و**محمود أبو الوفا** يرسل " أنفاسا محترقة " [8] .(قصاب، 2005م، صفحة 47)

[7]ـ وليد إبراهيم قصاب ، المذاهب الأدبية الغربية ، رؤية فكرية و فنية ، المرجع نفسه ، ص 45.
[8]ـ وليد إبراهيم قصاب ، المذاهب الأدبية الغربية : رؤية فكرية و فنية ، المرجع نفسه ، ص 47.

هذه العناوين وغيرها كثير تفيض بِسِمات ومظاهر الحزن والأنين والألم والشكوى، واليأس والتشاؤم وتدعو القارئ إلى الوحدة والانعزال والهروب من الحياة، كما كان بعضهم يمجد ويشيد بالشعراء الرومنسيين الفرنسيين الذين اشتهروا بالمجون والعربدة والعهر في أشعارهم ؛ فهذا الشاعر "**علي محمود طه** "يصف الشاعر الفرنسي البوهيمي(**بول فرلين 1844-1896 Paul Verlaine**) " لقد كانت حياة " **فرلين** " فاجعة محزنة، فمن الحان إلى السجن، إلى الماخور إلى الهيام في الطرقات إلى البرّ، هذا هو الشاعر الخالد الذي كان أرخم صوت غنائي صدح في الشعر الفرنسي .إنّ في حياة هذا المتشرد الكبير ضروبا من العبث وألوانا من الألم، ولكنّه العبث التي تستقيم به حياة الفنان البوهيمي، والذي يتيح للأدب في كل جيل فنونا شتى من الإجادة والإبداع "[9] . (قصاب، 2005م، صفحة 49) يظهر لنا بكل وضوح ممّا سبق في الفقرة السابقة شدّة تأثر فئة واسعة من الأدباء العرب ـالشعراء خاصة ـ بالرومنسية وتقديسهم لها، وذوبانهم في أتونها، وهذا راجع أساسا إلى الانبهار بالآخر، واحتقار الذات من وِجهة، وإلى غياب القراءة العلمية الموضوعية لما ينتجه الآخر الغربي من أفكار ومذاهب وفلسفات من وِجهة أخرى .

إن الموقف العقلاني السليم يقتضي منَ الناقد العربي أن ينظرَ إلى الرومنسية وغيرها من المدارس الأخرى نظرة علمية ناقدة ،خاصة وأنَّ كثيرا من الأدباء العرب ـكما ذكرنا منقبل ـاستوردوا " تلك الاتجاهات إلى بلادهم، فاستعملوا الألفاظ نفسها، وردّدوا التصورات نفسها، وتبنوا المفاهيم نفسها، دون بيان للأسس الأخلاقية التي تقوم عليها تلك المدارس" [10] ؛(الجهني، 2003 /1424، صفحة 840)وعليه وجب علينا اليوم ـ بعد زوال حالة الانبهار والسُكْر الفكري ـ أنْ نزن الرومانسية وغيرها من المدارس الأدبية الأخرى بميزان العقل والمنطق ونعرضها على مصفاة منظومة القيم

[9] ـ وليد إبراهيم قصاب قصاب ، المذاهب الأدبية ، رؤية فكرية و فنية ، المرجع نفسه ، ص 49.؟

[10] ـ مانع بن حمّاد الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان و المذاهب و الأحزاب المعاصرة، دار الندوة، الرياض،المملكة العربية السعودية، ص2003/840.1424م,

والأخلاق لدينا، إذْ نحن أصحاب حضارة وثقافة وتراث أدبي ذي جذور وأسس راسخة في الأرض وفرعها باسق في السماء، فما وافق من تلك المدارس أو المذاهب والفلسفات مكونات ومبادئ وأخلاقنا وقيمنا وأذواقنا الفنية والجمالية قبلناه، وأمّا ما جاء خلافا لها رفضناه ورددنا على وجوه أصحابه، لا أن نُقْبِل على المذاهب والفلسفات الغربية إقبال الأعمى الأصم والمستلم لها ، معتقدين أنّها الصواب الذي لا خطأ بعده، وأنّها الحق الذي لا باطل فيه، وأنّها الخير الذي لا شرّ وراءه، أو نتعاملَ معها كأنّها مُسلَّمَات علمية ثابتة أو معادلات رياضية قطعية يحرم علينا نحن الأدباء والنقاد الشرقيون مناقشتها أو حتى الشك في صحتها، وكأنها وحي يُوحى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

بناء على ما سبق نتطرق إلى نقد الرومنسية في جانبها الفكري، لأنّ الفكر مصدر السلوك، وكل ما يصدر عن الأديب من إبداع أدبي هو صدى لما اقتنع به ورسخ في ذهنه من أفكار وتصورات وفلسفات، ويُجسِّد ذلك السلوك في الأبعاد الجمالية والفنية، والمضامين الفكرية والفلسفية التي تشكل أعماله الإبداعية شعرا أو نثرا، كما نصبو من نقدنا هذا إلى تحصين الطالب العربي ضد الأفكار الدخيلة والمسمومة التي تحملها كثيرٌ من تلك المذاهب الأدبية الغربية، خاصة وأنّه يجد نفسه وحيدا في مواجهتها، إذْ تُفرض عليه فرضا في برامج المقاييس المختلفة التي يدرسها ، وتُقترَح عليه في في المذكرات والأطروحات الأكاديمية المختلفة التي ينجزها في نهاية كل مرحلة من مراحل مساره الدراسي.

أ ـ تجريد الأدب من الوظيفة الاجتماعية:

كانت السياقات الاجتماعية والسياسية التي نشأت في أكنافها الرومنسية السبب الرئيس في جنوح أصحاب هذا المذهب الأدبي إلى تجريد الأدب من وظيفته

الاجتماعية والأخلاقية التي اتّسم بها منذ العصر اليوناني لدى جميع آداب الأمم والشعوب المتعاقبة منذ طفولة البشرية ، فقد حصر الشعراء الرومنسيون بعد خيبة أملهم في الثورة الفرنسية - كما بيّنا من قبل - موضوعات أدبهم في التعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم وتجاربهم الشعورية الفردية، ورفضوا رفضا تاما أن يكون الشعر أداة أو وسيلة لتناول قضايا المجتمع وشؤونه الحياتية اليومية، أو أنْ يكون وسيلة تربوية وأخلاقية، وإنّما هم وضعوا أساس الشعارات والعناوين السلبية للفنون عموما وللأدب خصوصا، مثل **" الفنللفنّ " و" الفنّكلّه لا ينفع "** و **" من كان أخلاقيَ النزعة لن يكون فنانا "** .

إنَّ هذا الموقف المتطرف والمتنكر لوظيفة الأدب الاجتماعية والأخلاقية، من المبادئ أو المرتكزات التي قامت عليها الرومنسية والذي يجب على الأديب العربي الحصيف أنْ يرفضه رفضا تامّا، وأنْ يردّه على وجه أصحابه، لأنّ الكلمة مسؤولية في عرفنا الحضاري والأخلاقي، ولا يمكن أبدا أن يكون الأدب خاليا من أيْ دلالة هادية لخير ،أو ناهية عن شرّ، أو مرشدة إلى سبيل الهدى، أو مُحذرة من سبيل الغواية ،و عليه " لا بدّ أنْ للفنان المثمر أو الأديب الحقّ من أنْ يكون وليد عصره وابن بيئته، بغير ذلك يصبح الأدب أو الفن شيئا ضعيف الأثر ضئيل القدر" [11]، (الحكيم، دون تاريخ، صفحة 295)شرط أن يتمَّ ذلك كلّه في شكل فني راق، وصياغة فنية رائعة، بعيدا عن أساليب الوعظ والإرشاد، وطرائق الأمر والنهي، والردع والزجر والخطاب السطحي الفجّ .

الأدب الحق هو من كان في خدمة المجتمع الذي وُلد فيه، من أجل نصرة قضاياه المصيرية والدفاع عن منظومة القيم التي تحفظ له أسباب وجوده المعنوي والمادي ؛ إنّ الأدب الجاد مثلما يحتفي بالشكل الفني والبناء الجمالي للنص، يحرص كذلك كلَّ الحرص على المضمون الذي يحمل إلى المتلقي المفاهيم والتصورات الصحيحة حول

[11] ـ توفيق الحكيم ، فن الأدب، مكتبة مصر، القاهرة ، مصر، دون تاريخ، ص295.

الإنسان والحياة والكون، يعلمه ويربّي فيه القيم والمبادئ السامية التي تجعل منه الإنسان الكامل كما خلقه ربّه في أحسن تقويم، لا كما تريد المذاهب الأدبية الغربية التي تعمل على صياغة وصناعة الإنسان الحيران والمتخبط في هذه الحياة، والمنفلت من الأخلاق والأعراف الاجتماعية ، والمتمرد على قوانين وسنن خالقهسبحانه وتعالى .

الرومنسية ـكغيرها من المذاهب الغربية الأخرى ـ تستند في أصول فلسفية وخلفياتها فكرية ومرجعياتها المفاهيمية إلى البيئة الغربية نشأت في أكنافها ، وإلى السياقات التاريخية والظروف الاجتماعية المحلية لتلك البيئة " وهي تتصل في مجموعها بتاريخ الأمم التي وضعت تلك المذاهب، فلماذا تُنقل لتكون قوانينَ يخضع لها أدبنا الذي يختلف من حيث تكوينه وطابعه وتاريخه وبيئته ومظاهر حياته عن هذه الآداب" [12]،(العرابي، 2003، صفحة 57) لذا لا يمكن استيراد الرومنسية إلى الأدب العربي بتلك الطريقة الساذجة التي تمت بها في القرن الماضي دون نقد وتمحيص ولا مساءلة، وراح الأدباء العرب يرفعون ويرددون شعاراتها المضللة، خاصة ما تعلّق بتجريد الأدب من وظيفته الاجتماعية والأخلاقية؛ لذا نرى أنّه حان الوقت لإرجاع الأمور إلى نصابها، ووضع الحروف على النقاط ـ كما يقال ـونفضح حقيقة الرومنسية وانحرافاتها الفكرية في هذا المسألة خصوصا، ونكفَّ عن ترديد مقولة " **لا وظيفة للأدب في الحياة**" إلاّ وصف أحزان الشاعر ومآسيه وعربدته، ووصف الطبيعة وتمجيدها .

ب ـ إعفاء الفرد من المسؤولية الذاتية :

من سقطات الرومنسية وانحرافاتها الفكرية الخطيرة ترويجها لمقولة أنّ الفرد ليس مسؤولا عن أعماله وسلوكياته المنحرفة، وإنّما المسؤولية تقع على عاتق المجتمع

[12] ـ لخضر العرابي ، الأدب الإسلامي ماهيته و مجالاته، دار الغرب للنشر و التوزيع، وهران ، الجزائر، 2003،ص57.

الذي نشأ فيه، وما الفرد ما هو إلاّ ضحية للظروف والأحداث والإكراهات المجتمعية التي تقوده وتوجهه إلى مصيره المحتوم ؛ فراح الأدباء الرومانسيون ـ في أعمالهم الأدبية ـيتعاطفون مع المنحرفين والشواذ والمجرمين في أعمالهم الأدبية، ويصفونهم بالشجعان والأبطال، ويقدمونهم كنماذج صالحة للاقتداء في الحياة ؛ لذلك شاع في نصوصهم الإبداعية عبارات وأوصاف متناقضة، مثل " اللّص الشريف، البغيّ الفاضلة، المومس الطاهرة، وغير ذلك ممّا يشير إلى هذه الدلالة التي نتحدث عنها " [13] .(قصاب، 2005م، صفحة 52)

يعتقد الأديب الرومنتيكي أن الشخصية الأدبية الُمتخَيلة في العمل الإبداعي الأدبي ـ التي تحيل على الشخص الطبيعي أو الحقيقي في المجتمع ـ ما هي إلاّ كائن مسكين مغلوب على أمره، مسلوب الإرادة، لا يقدر على فعل شيء، وإنّما هو ضحية القيم والقوانين والأعراف والأخلاق التي تحكم المجتمع، فإذا سرق السارق، فهو سارق لطيف ظريف، وإذا فجرت البغي فهي عفيفة طاهرة، وإذا قتل المجرم، فهو ضحية قبل أن يكون مجرما ، وعليه فلا يحق ولا يجوز للمجتمع أنْ يحاسبه أو يحاكمه، بل حتى أن يلومه ويعاتبه على أفعاله الشنيعة التي يقترفها في غيره من أفراد المجتمع.

لا شكّ أنَّ هذا الانحراف الفكري الذي تبناه الأدباء الرومنسيون ونشروه ودعوا إليه في مؤلفاتهم يشكل انتكاسة للإنسان ـ أفرادا وجماعات ـ لأنه يفتح الباب واسعة مُشْرَعةً لكل من تُسوِّل له نفسه اقتراف الآثام والاعتداء على القيم والمحارم والأنفس ما دام مُبَرأ من كلُّ آثامه ما ظهر منها وبطن، ومادام المجتمع هو المسؤول الوحيد والأول والأخير عن كل ما يرتكبه هذا المجرم الوديع المسلوب الحرية والإرادة والقرار، وبهذا يكون غير مسؤول عن أعماله أمام القضاء البشري، وغير محاسب عنها أمام الحكم الإلهي، وهذا لعمري ـ مذهب عبثي منحرف ومتطرف .

ج ـ الثورة على الأخلاق والتقاليد والأعراف الاجتماعية :

[13] ــ وليد إبراهيم قصاب، المذاهب الأدبية الغربية ، رؤية فكرية وفنية ، مرجع سابق ،ص52.

كانت الرومنسية ثورة شاملة وكاسحة على مكونات المنظومة الأخلاقية للفرد والمجتمع، وكانت تمردا جريئا ومستفزّا على التقاليد والأعراف الاجتماعية، وقد تجسَّدت هذه الثورة في إبداعاتهم الشعرية والسردية في الغرب والشرق على حدّ سواء ؛ففي أدبنا العربي الرومنسي نجد ذلك التمرد الأخلاقي والسلوك العبثي مبثوثا في كثير من قصائد بعض الشعراء الذين مجّدوا هذا المذهب الأدبي المنحرف، وانبهروا بفلسفته الضالة، فراحوا يَدْعون في شعرهم إلى اقتراف الفواحش مع ظهر منها وما بطن، مثل تمجيد الخمر، والدعوة إلى الحب الماجن، والمجاهرة بالحديث عن اللّذة الجنسية والعري والتهتك بأسوب فاحش ساقط، وتمّ ذلك كلُّه بأسلوب بذيء صريح وواضح لا يحتمل أيْ تفسير أو تأويل، ولنضرب مثالا على ذلك، حتى ندرك خطورة هذا الاتجاه الأدبي وخساسته لدى بعض الشعراء العرب الرومنسيين، فهذا الشاعر المصري "**إبراهيم المصري** " يتطرق في إحدى قصائده إلى وصف الخمر وتمجيدها وتصويرها في أحسن صورة، وهي دعوة صريحة إلى شربها والإدمان عليها، وهذه بعض الأبيات من قصيدته المعنونة " **مقتطفات البيرة** " :

" مع أوّل جرعة من البيرة

يمضي الكسل بأمتعته

و تركض النفس خلف غرائزها

مثل أن يشحر أحدنا بالموسيقى

تتساقط كمطر

على عنقه

.....

البيرة زورق

ينساب ناعما فوق نهر هادئ

لا تعرف البيرة عن أوصافها

كل هذا الجمال

لكنها تؤدي مهمتها بكفاءة

و أكثر من ذلك

تدعو إلى الرفص" [14](المصري، 2008، صفحة 62)

يشيد هذا الشاعر الجاهلي المعاصر " الرومنتيكي" في هذه القصيدة بالبيرة ويتغنى بها ويُثني عليها، ويصفها بأحسن الأوصاف وأبدعها، فهو بهذا السلوك المَشين يدعو صراحة إلى تعاطي المشروبات المحرمة والمنبوذة في المجتمع الإسلامي، وهنا يكمن الخطر، حيث يصير الأدب وسيلة للعربدة والمجون، وللتمرد على منظومة القيم التي تسيّر المجتمع وتضبطه وتوجهه، عوض أن يكون أداة إيجابية وبناءة، تُسهم في نشر الأخلاق والقيم والفضيلة في المجتمع، وتوجهه إلى طريق الخير والبرّ والصلاح.إن سلوك هذا الشاعر الرومنتيكي وغيره ممّن حذوا حذوه يجسّدون المذهب الرومنسي أوضح تمثيل كما وضعه ودعا إليه الشعراء الرومنسيون الغربيون أنفسهم، دون تغيير ولا نقد ولا تمحيص لما نستورده من أفكار ونظريات ومذاهبَ من الغرب، وهذا ما انعكس بصورة سلبية على في أدبنا العربي المعاصر.

خاتمة :

الرومانسية مذهب أدبي غربي نشأ وانتشر في الغرب في سياقات تاريخية واجتماعية وسياسية محلية محدّدة، لا علاقة لها بظروف وخصوصيات أدبنا العربي ؛ لذا وجب على الأديب العربي الحاذقأن يتفطن لهذا الفرق الجوهري، حتى لا يقلد الآخر تقليدا أعمى.

قام المذهب الرومانسي على مجوعة من الرؤى والتصورات، والمرتكزات المنحرفة والسقيمة، مثل الدعوة إلى الانعزال عن المجتمع وقضاياه المصيرية،

[14] ـ إبراهيم المصري، المجموعة الشعرية "مقتطفات البيرة "، مؤسسة شمس للنشر و الإعلام، القاهرة ، مصر.2008،

والتغني وبل التلذذ بالحزن والأسى واليأس، وإلى التمرد على منظومة القيم في المجتمع.

تقتضي منّا المثاقفة الرشيدة أنْ نتعامل مع المذاهب الأدبية الغربية المستوردة تعاملا واعيا، بعيدا عن طرفي الإفراط والتفريط ؛ أيْ لا نحتضنها كما هي دون نقد ولا مساءلة، ولا نرفضها كلّها قبل دراستها وتمحيصها، بسبب مصدرها الغربي.

المراجع:

الجهني ,م .ب .(1424/ 2003) .*الموسوعة الميسرة في الأديان و المذاهب و الأحزاب المعاصرة*.الرياض ،المملكة العربية السعودية :دار الندوة.

الحكيم ,ت) .دون تاريخ .(*فن الأدب*.القاهرة ، مصر :مكتبة مصر.

السبكي ,آ .(1985) .*أوروبا في القرن التاسع عشر)فرنسا في مئة عام* .(1 .éd))المملكة العربية السعودية :دار المعرفة للنشر و التوزيع ، جدّة.

الطاهر ,ع .ج .(1983) .*الخلاصة في مذاهب الأدب الغربي*.العراق :دار الجاحظ للنشر، بغداد.

العرابي ,ل .(2003) .*الأدب الإسلامي ماهيته و مجالاته*.وهران ، الجزائر :دار الغرب للنشر و التوزيع،.

المصري ,إ .(2008) .*المجموعة الشعرية "مقتطفات البيرة* ."القاهرة ، مصر :مؤسسة شمس للنشر و الإعلام.

فريد ,آ .(1977) .*الرومانسية في الأدب الفرنسي*.جمهورية مصر العربية :دار المعارف، القاهرة.

قصاب ,و2005) .م .(*المذاهب الأدبية الغربية رؤية فكرية وفنية* .(1 .éd)بيروت :الناشر :مؤسسة الرسالة.

نصر ,ق .ز .(2008) .*الاتجاه الرومنسي في الشعر العربي الحديث بالمغرب* .(1 .éd)دمشق ، سوريا :دار الطليعة الجديدة.